المناظرات العلمية بين الفقهاء المالكية أنفسهم وبينهم وبين غيرهم

(أصولها وآدابها وبعض النماذج منها) الحلقة الأولى

ذ.الحسن إد سعيد

الحمد لله رب العالمين، دعا إلى عبادته وتوحيده على أسس من البرهان والحجج التي تفيد اليقين، وبعث من أجل ذلك نبيه ورسوله محمدا ﷺ حاملا بين يديه كتابا مبينا؛ ملئه الدعوة إلى النظر وقياس الأمور بعضها ببعض، مرشدا إلى التفكر والتدبر في ملكوت الله ﷻ طولها والعرض، داعيا إلى مناقضة دعاواه ومسلماته لمن كان له حول أو طول، مقررا ثبات معانيه ومبانيه ما شاء الليل والنهار أن يكون لهما دَوْل.

نحمده جل وعلا ونستعينه ونستهديه، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد ومن على شاكلته وشرعته يقتفيه، إلى يوم لقائه على الحوض وأُمَّتُه تحتبيه.

وبعد : فموضوع هذه الكلمة هو « **المناظرة العلمية بين العلماء المالكية – أصولها وآدابها وبعض النماذج منها** ».

وخصصت بالذكر والقصد علماء المالكية لأمور منها :

– مناسبة الموضوع للمجلة الوليدة التي نتمنى أن تكون إن شاء الله منارة يهتدي بها الضال وينتحيها الحيران، حيث أثارت هذا الموضوع القديم الجديد؛ القديم بموضوعه وخصوصياته، والجديد بثوبه القشيب الجديد، ومنهج طرحه الواعد بالمزيد.

– حاجة الأمة إلى استخراج هذا الكنز الدفين، في ركام تاريخها العريق المتين، بعد أن اكتوت بخلافاتها الضيقة العطن، والكثيرة التنقل والظَّعَن، بين مختلف المذاهب الفكرية المعاصرة التي أثبت الزمنُ عقمَها وثكلَها، وقحطَها في ميدان الإنصاف ومحلَها، والعالم قرية

صغيرة متقاربة العمران، أو غرفة محاطة بالجدران، أو سفينة ، بعبارة الرسول ﷺ، صار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها بحكم الاستهام بين الركبان.

– إعادة النظر في ما قيل عن الفقهاء المالكية وبُعْدِهم عن مدارس النظر والجدل، وما في ذلك من صواب أو خطل.

فأقول مستعينا بالله:

تعريف المناظرة لغة واصطلاحا:

1–المناظرة مأخوذة من نظر في الشيء ينظر فيه أي أعمل فيه فكره، وإذا كان من الطرفين سمي مناظرة، لأن كلا منهما ينظر فيه معاكسا نظر صاحبه على أساس نقضه أو قبوله.

قال ابن منظور: "والمُناظَرَةُ: أن تُناظِرَ أخاك في أمر إذا نَظَرْتُما فيه معاً كيف تأْتيانه".[1]

أو هي من المناظرة التي هي المشابهة والمقابلة والمراعاة بين الأمرين المتناظر فيهما، بحيث يضع كل مناظر حجته نظير حجة الآخر، ومنه" حديث الزهري لا تُناظِرْ بكتاب الله ولا بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قوله: لا تُناظِر، لم يرد لا تتبعه ولا تَنْظر فيه، وليس ينبغي أن تكون المناظرة إلا بالكتاب والسنة، ولكن الذي أراد عندي أنه جعله من النظير وهو المِثل، يقول: لا تجعل نظيرا لكتاب الله ولا لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي لا تتبع قول أحد وتدعهما "[2].

ويقول ابن منظور: "و المُراعاة: المُناظَرة والمُراقَبَة. يقال: راعَيْتُ فلاناً مراعاة ورِعاءً إذا راقَبْتَه وتأَملْت فِعْله. و راعَيْتُ الأَمر: نَظَرْت إِلى مَ يصير"[3].

2–أما في الاصطلاح :

فقد عرفها الجرجاني بقوله :" المناظرة لغة: من النظير أو من النظر بالبصر. و اصطلاحا: النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب"[4].

وعرفها الأستاذ خالد خميس فرَّاج بقوله: "حوار بين شخصين أو فريقين يسعى كل منهما إلى إعلاء وجهة نظره حول موضوع معين والدفاع عنها بشتى الوسائل العلمية والمنطقية واستخدام الأدلة والبراهين على تنوعها محاولا تفنيد رأي الطرف الآخر وبيان الحجج الداعية للمحافظة عليها أو عدم قبولها"[5].

وقال في كشف الظنون:" علم آداب البحث ويقال له علم المناظرة قال المولى أبو الخير في مفتاح السعادة: وهو علم يبحث فيه عن كيفية إيراد الكلام بين المناظرين، وموضوعه الأدلة من حيث أنها يثبت بها المدعي على الغير، ومباديه أمور بينة بنفسها، والغرض منه تحصيل ملكة طرق المناظرة لئلا يقع الخبط في البحث فيتضح الصواب"[6] .

وترد مصطلحات أخرى يراد بها ما يراد بالمناظرة وهي الجدل والحوار والخلاف، فهي مصطلحات ترمي إلى محاورة الخصم وكشف ما هو عليه من الباطل، أو الوصول إلى ما عنده من الحق والصواب، فلا يكون قصد المحاور أو المناظر والمجادل مجرد إفحام الخصم وإسكاته، بل الوصول إلى الحق من حيث هو. كما سنرى في آداب المناظرة.

أهمية المناظرة:

تكمن أهمية المناظرة في تكثيف الجهود وجمع الاحتمالات وفحص الآراء من أجل التوصل إلى رأي صائب أو قول راجح ينبغي التعويل عليه والانصراف إليه.

وذلك لما فطر الله تعالى عليه بني البشر من الاختلاف في المدارك والتفاوت في الذكاء وسرعة التنبه لمكامن الخفاء. قال تعالى ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾[7] ، وقال سبحانه ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس

أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم ﴾ [8]، قال بعض العلماء من المفسرين: أي للاختلاف خلقهم.

وذلك الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وقد فتح بابا واسعا للاجتهاد والبحث في الشريعة الإسلامية، الشيء الذي جعلها غنية في تراثها الأصولي والفقهي والكلامي والعلمي بمعناه العصري: أي العلوم التجريبية والرياضية والطبية والفلسفية وغير ذلك مما عرفه المسلمون قبل غيرهم في مجالات شتى من حياة الإنسان.

يقول ابن خلدون: " وأيسر طرق هذه الملكة- يعني ملكة الحذق في العلوم- فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها..." [9].

ويقول أيضا: " فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافا لا بد من وقوعه، لما قدمناه، واتسع ذلك في الملة اتساعا عظيما، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا منهم ثم انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة...فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية، وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كلٌ على مذهبه الذي قلده وتمسك به" [10].

من خلال هذا النص نستشف منشأ المناظرة وسبب حدوثها، ولماذا جرت على أسس معقولة ومقبولة من طرف المتناظرين، وإن اختلفت مذاهبهما، وذلك ما أغنى الفقه الإسلامي وأثراه إلى حد، لم يستطع المعاصرون رغم توفر الوسائل وتقريب المسافات، أن يستوعبوه استيعابا ولا أن ينقدوه بحيث يقتلونه بحثا ويزيدون.

ولعل السبب في هذا العجز هو انقطاع هذا العلم لقرون خلت كما ذكر ابن خلدون نفسه حيث نعى على من جاء بعد القرن السادس فما بعده حيث يقول: " وهي -المناظرة- لهذا

العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية، وهي مع ذلك كمالية، وليست ضرورية"[11].

ولا أتفق مع ابن خلدون في قوله " وهي مع ذلك كمالية"، لأن الأمة فقدت الكثير بسبب انقطاع المناظرة، وعولت على غيرها في البحث والتنقيب، فهي اليوم عاجزة عن المزيد، واستهولت ما يأتي به الغير من البحوث التي تصل أحيانا إلى حد المعجزات– ولتفهم العبارة على أحسن محاملها– كما حدث في وسائل الاتصال والمعلوماتية عموما وغيرها.

فأهمية هذا العلم إذاً ليست شيئا ثانويا في حياة الناس، ولا ترفا فكريا يلجأ إليه للترفيه، بل شرط من شروط التقدم والازدهار، وعنوان للحياة والديناميكية في الأمة، التي يفترض فيها التجدد والتجديد لما تحمله من رسالة لا تتوقف عبر الزمان والمكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. يقول الرسول ﷺ: **{ إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها }**[12].

وليس المراد بتجديد الدين تجديد النصوص كما هو واضح، ولكن تجديد الفهم لتلك النصوص والقدرة على تنزيلها على الواقع المعيش، مع سلامة التأويل ونصاعة الفهم، وحسن القصد، حتى لا يعتبر كل من سولت له نفسه التلاعب بالنص الشرعي مجددا لأمر الأمة، وذلك لا يكون إلا بالمراس وطول البحث وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة، مع مراعاة مآخذ الطرف الآخر ومقابلتها وتلك هي المناظرة، سواء حضر الطرفان المتناظران في مجلس واحد، كما هو الشأن في المناظرة التقليدية، أو جلس عالم في خلوته معرضا آراءه على آراء خصمه باحثا فيها وفي موارده ومصادرها، ناقدا لأصولها ومعاقدها، فذلك كله مناظرة.

ولا يرد على ما ذكرنا ما ورد في ذم الجدال والمراء، فإن المذموم من ذلك ما قصد به باطل وصد عن سبيل الله، أو ما قصد به التعالم على الخصم وإظهار الفوز عليه بشقشقات الشدقين ولظلظة الشفتين، على أن لا يتنازل أي من الخصمين لصاحبه في النهاية، أو يكاد،

كما يحدث في كثير من الحوارات التي تشاهد على الشاشات، أو تجريها الصحف والمجلات مع صناع السياسة وأصحاب القرارات، فالمراد بهذه، كما هو معلوم، أن يثبت المحاور ما يحمله في جعبته مهما كلفه الأمر من ثمن قد يصل إلى الكذب أحيانا، للخروج من الورطة، فهو كحوار فرعون حين استشار قومه في أمر موسى، ثم حسم الأمر بقوله: ﴿ما أُرِيكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ [13]، فهو استبداد مطلق وعناد متكبر مقيت. قال تعالى ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ [14]، وقال ﷺ : { أنا زعيم – يعني ضامن – ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه } [15].

فلا خير في مناظرة أو نقاش لم يلتزم فيه صاحبه الإنصاف ولم يضع أمامه الوصول إلى الحق حيث كان، كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: " ما ناظرت أحدا إلا وتمنيت الله أن يجري الحق على لسانه"، وفي رواية": ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطىء" وكان يقول "ما كلمت أحدا قط إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه" [16]. هذه هي المناظرة المشروعة، والتجرد للحق وللحق وحده.

ثمرة المناظرة:

للمناظرة ثمار كثيرة وجليلة، فهي تكشف الحق من الباطل وتدعمه بالحجج والبراهين، وتدمغ الباطل وتزهقه بتمكين الحق من مكانه أشد التمكين. وترشد الضال للاهتداء إلى الصواب، وتصد المعاند وتوصد عليه كل باب، ولنورد على سبيل المثال نموذجا من هذه الثمار:

لما خرج الخوارج على علي ﷺ، لم يبدأهم بالقتال والنزال، بل بالمناظرة والجدال، فبعث إليهم عبد الله بن عباس ﷺ، قائلا له: " لا تحاججهم بالقرآن، فإنه حمال ذو وجوه، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصا" [17].

ولعمري لو حاججهم ابن عباس بالقرآن لألزمهم الحجة، كيف لا وهو ترجمان القرآن؟ ولكن عليا ﷺ أراد أن يناظرهم بما لا يحتمل التأويل، ويقطع عليهم طريق المزايدة في الكلام، حقنا للدماء وصونا للأعراض.

فكانت النتيجة أن عاد منهم إلى الرشد أربعة آلاف من مجموع ثمانية آلاف، أي نصفهم تقريبا، وهذا بيت القصيد، حيث أفادتنا المناظرة كثيرا في أمر خطير، تزهق فيه أرواح كثيرة بسبب الغلط والتعتيم والمغالطات.

ومن ثمارها كذلك ما أشار إليه الذهبي بقوله :" وبين الأئمة اختلاف كبير في الفروع وبعض الأصول، وللقليل منهم غلطات وزلقات ومفردات منكرة، وإنما أمرنا باتباع أكثرهم صوابا ونجزم بأن غرضهم ليس إلا اتباع الكتاب والسنة، وكل ما خالفوا فيه لقياس أو تأويل، قال وإذا رأيت فقيها خالف حديثا أو رد حديثا أو حرف معناه فلا تبادر لتغليطه، فقد قال علي كرم الله وجهه، لمن قال له: أتظن أن طلحة والزبير كانا على باطل؟ :(يا هذا إنه ملبوس عليك إن الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله) وما زال الاختلاف بين الأئمة واقعا في الفروع وبعض الأصول مع اتفاق الكل على تعظيم الباري جل جلاله وأنه ليس كمثله شيء، وأن ما شرعه رسوله حق، وأن كتابهم واحد، ونبيهم واحد، وقبلتهم واحدة، **وإنما وضعت المناظرة لكشف الحق وإفادة العالم الأذكى العلم لمن دونه وتنبيه الأغفل الأضعف،** فإن داخلها زهو من الأكمل وانكسار من الأصغر فذاك دأب النفوس الزكية في بعض الأحيان غفلة عن الله فما الظن بالنفوس الشريرة المنطقية" [18].

فبالمناظرة والحوار إذاً يكشف الحق ويفيد العالم من دونه في العلم، وتكسر شوكة المحتال المخاتل بالشبهات والمتشابهات التي ليس كل الناس على مستوى كشفها ومعرفة الصواب من الخطأ فيها.

تأصيل المناظرة:

لما خلق الله تعالى الخلق، خلقه مفطورا على الطاعة والإذعان، والتسبيح على كل حال وشأن، غير الإنس والجان، حيث ميزهما بالتكليف، وأعطاهما من الحرية ما يناسب هذا التشريف، فاستوى لديها الفعل والترك في الإمكان، في كل زمان أو مكان.

وانطلاقا من هذا المنطلق ناظر سبحانه، الشيطان، وهو المتمرد في لبوس العصيان، وأبى أن يسجد كما سجد الملائكة بلا اعتراض أو نكصان.

وناظر ربنا جل وعلا ملائكته المقربين، وهم على الطاعة مدمنون، وألزمهم الحجة في تعليم آدم الأسماء بلسان مبين، فأقروا وأسندوا العلم لمالك يوم الدين.

وناظر سبحانه أنبيائه المرسلين، كما في قصة موسى في طه وغيرها من سور الكتاب المبين، إرشادا له على مناظرة فرعون يوم الزينة على رؤوس الآلاف والمئين، كما في الأعراف وطه والشعراء والقصص حيث ألقي السحرة ساجدين، مقرين بغلبة موسى بالعصى واليمين.

وحاور عيسى تعريضا بقومه الذين اتخذوه إلها من دون الله، وكانت حجته عليه السلام أن أمرهم بما أمره به مولاه.

وكان ألذ حوار وأشهاه، وألطفه وأبهاه، ما دار بين الرسول ﷺ وربه عز وجل ليلة الإسراء والمعراج في الصلوات الخمس، حيث راجع ربه من خمسين إلى خمس، فغامره ﷺ الحياء، وقال: (لقد راجعت ربي حتى استحييت)، وجوزي بالتخفيف على الأمة مع إمضاء الفريضة من لدن من لا يظلم مثقال ذرة، سبحانه.

وناظر القرآن الكريم المشركين وألزمهم الحجة بأقوى برهان وأسطع بيان، فنزلت الآيات تترى في حياشة المشركين إلى الاقتناع، وإرغامهم على الاستماع، على ما أوتوا في سحر الكلمة من طول الباع، فكانت النتيجة ما رواه البخاري عن جبير بن مطعم، وهو يحشو أذنه قطنا حتى لا يسمع القرآن، وكان يومئذ ما يزال على شركه، فنفذ إلى قلبه من غير استئذان،

قول الحق ناصع البرهان، والنبي ﷺ يصلي في الحرم على رغم أنف عبدة الأوثان، رافعا صوتها بتلاوة القرآن، فقال جبير ﷺ:" سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون** ﴾ [19]، كاد قلبي أن يطير"[20].

لاحظ قوله "كاد قلبي أن يطير" إنه اعتراف وإذعان لذلك البيان، الذي كان سببا في إسلام جبير ﷺ، والأمثلة كثيرة.

وناظر النبي ﷺ قومه، وجادلهم بالحسنى، كما أمر ، وناظر من بعده أصحابه، وأوتوا من ذلك من البيان ما سجله عنهم التاريخ.

ووقع الإجماع على جواز المناظرة والمجادلة بالحسنى، لنصرة الحق وأهله ودحض الباطل وحزبه.

يقول علي بن محمد الآمدي، في سياق الحديث عن جواز خطأ المجتهد:

– "الثالث أن الأمة مجمعة على تجويز المناظرة بين المجتهدين، ولو كان كل واحد مصيبا فيما ذهب إليه لم يكن للمناظرة معنى ولا فائدة، وذلك لأن كل واحد يعتقد أن ما صار إليه مخالفه حق وأنه مصيب فيه، والمناظرة إما لمعرفة أن ما صار إليه خصمه صواب، أو لرده عنه فإن كان الأول ففيه تحصيل الحاصل، وإن كان الثاني فقصد كل واحد لرد صاحبه عما هو عليه مع اعتقاده أنه صواب يكون حراما"[21].

فالمناظرة إذاً واقعة عقلا وعملا، وأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بالمجادلة بالتي هي أحسن، ودعا المخالفين من أهل الكتاب والمشركين إلى المناظرة على أسس مشتركة وقواعد متينة، من مثل قوله تعالى :﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا...**﴾ [22]، وقال عز من قائل: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب**

إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ [23].

وقال للمشركين: ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا، ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ [24]، وقال جل جلاله: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ [25]، وهذا أدعى للمناظرة لو كان لهم ما يخرجون، ولهذا قال بعدها: ﴿ قل فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ .

أصول المناظرة:

للمناظرة أصول لا بد من مراعاتها والالتزام بها في المناظرة

فلم تكن المناظرة كلأ مباحا لكل أحد، ولا مرتعا خصبا يرتع فيه من شاء بلا حد، لكنها فن متخصص، وعلم قائم بذاته، له أدواته وأسسه وقواعده، فمتى توفرت تلك الأصول والقواعد اعتد بها وبنتائجها، وإلا فلا.

ومن هذه الأصول:

1– الطرق المتفق عليها للمناظرة، فلا بد من سلوك الطرق العلمية المحددة للحوار لكي نصل إلى النتيجة المطلوبة، وذلك بالاعتماد على:

أ– تقديم الأدلة المُثبتة أو المرجِّحة للدعوى.

ب– صحة تقديم النقل في الأمور المنقولة.

وفي هذين الطريقين جاءت القاعدة الحوارية المشهورة: "إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدَّعياً فالدليل".

ولذلك يكثر في المناظرات قولهم ما دليلك على ما تدعيه، أو ائتنا من كتاب الله أو سنة رسوله بما يؤيد دعواك.

وأصل هذا في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ [26].

وقوله تعالى: ﴿ قل هاتوا برهانكم، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ [27]. والنماذج كثيرة ومتعددة.

2- سلامة كلامِ المناظر ودليله من التناقض؛ فالمتناقض ساقط بداهة.

فلابد للمناظر أن يكون كلامه سالما من التناقض بحيث لا يبطل بعضه بعضا، فلو قال كلاما غير محبوك البناء تناقض عليه وبهت. من أمثلة ذلك قول المشركين للرسول ﷺ: ﴿ ساحر أو مجنون﴾ وكذلك قال فرعون لموسى عليه السلام. ووجه التناقض في ذلك اجتماع السحر الذي يكون صاحبه على أشده في الفطنة والذكاء وسرعة تقليب العين وتخييلها، مع الجنون الذي يكون صاحبه في تخبط مستمر، وفقدان العقل والتمييز.

فأنى يستقيم هذا المنطق الفاسد الذي كان فيه الوصفان على طرفي نقيض؟

3-أن تكون المنطلقات الأولى متفقا عليها.

فإذا اختلفت المنطلقات اختلت الموازين، ويحتج كل خصم بمسلماته دون مسلمات صاحبه، فتنعدم الجدوى من المناظرة.

فلو وقعت المناظرة مثلا بين عالم دين يعتبر الدين المصدر الأساس لحججه وأدلته، مع من لا يؤمن بهذا الدين أصلا، ولا يعتبر ما جاء به قانونا يعود إليه، فلن تكون الجدوى من تلك المناظرة، ولن يصلا إلى أية نتيجة. والنماذج في العصر الحديث كثيرة لا تحصى.

وقد يقول قائل: هذه الدعوى يبطلها ما شاهدناه في بعض الأحيان من إذعان بعض الكفار لما جاء به هذا الدين، وأعلنوا لذلك إسلامهم.

أقول: هذا دليل على اشتراط المبادئ المسلمة بين الطرفين، وليس العكس، لأن الذين وقع منهم ذلك فاجأهم الإسلام فيما هم يزاولون من التجارب العلمية، فأقروا بصحته وأنه من عند الله، بدليل أن تجاربهم تلك حديثة العهد بالظهور، بينما القرآن والسنة مضت على ظهورهما الدهور والعصور، فاقتضى الأمر التسليم على أساس نتائج العلم وحديث القرآن.

وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ [28].

هذه قاعدة عظيمة رسخها الإسلام، في هذه الأمة، الإيمان بالتوراة المنزلة على موسى شرط لبدء الحوار مع اليهود، والإيمان بالإنجيل المنزل على عيسى شرط لمناظرة النصارى، وهنا تكمن قوة المناظر بهذا الدين، حيث يسحب بساط المناظرة تحت أرجل الخصم ويمثل مبدأه أحسن تمثيل، كما حدث لجعفر بن أبي طالب، لما سأله النجاشي عن قوله في المسيح، فكانت كلمته قاصمة الظهر لعمرو بن العاص رسول قريش إلى النجاشي لاسترداد المسلمين الفارين بدينهم من الطغيان.

وهذا النهج الإسلامي الناصع استعمله شيخ المناظرين في العصر، وصفع به وجه الحوار الغربي المزيف، الشيخ أحمد ديدات، رحمة الله تعالى عليه، إذ يقدم دائما لكلامه بعد الحمد والصلاة، بالصلاة على ابن مريم عليه السلام، والثناء عليه بما جاء في القرآن الكريم، الشيء الذي يجعل جماهير الحاضرين ينساقون مع كلامه، ويجدون لذة لحواره وبراهنه، كما هو مشهور ومعلن في مناظراته العديدة والمفيدة.

4- أن لا يكون الدليل هو عين الدعوى، فإذا عينها بطلت الدعوى لأنها إعادة للدليل بصيغ أخرى، لأن المراد بالدليل الحجة الموصلة إلى الدعوى، باعتباره مسلما معلوما، والدعوى مجهولة تحتاج إلى استجلاء بالدليل.

ولا يفيد ذلك إلا الدور والتسلسل والدوران كدوران الحمار حول الرحى.

5- التجرُّد، وقصد الحق، والبعد عن التعصب، بقدر الإمكان.

فالمناظرة تعاون على الدين واستخراج مسائله وقضاياه، ولن يكون ذلك سالما، إلا كان القصد الوصول إلى الحق دون النزو على الحقائق لحاجة في نفس المناظر، كالانتصار لمذهب أو طائفة أو اتجاه أو شهوة في النفس كالتعالم على الغير وقصد إفحامه.

ويحضرني الآن في التعالم على الغير أن رجلا أعمى، وكان أديبا من ندماء بعض الأمراء الأندلسيين، أخذت الغيرة من صاعد الأخباري المشهور، وقد جاء لزيارة ذلك الأمير، فاستأذن الأعمى الأمير على إحراجه وإفحامه، فحذر الأمير ولم يمنعه، فلما دخل عليهما صاعد، وكان ظريفا ماجنا سريع الجواب، سأله الرجل الأعمى على سبيل التهكم فقال له: ما الجرنفل؟ في كلام العرب. فأطرق صاعد ساعة، وعرف أنه افتعل هذا من عند نفسه، ثم رفع رأسه إليه فقال: هو الذي يأتي نساء العميان، ولا يتعداهن إلى غيرهن، فاستحى ذلك الأعمى وضحك الحاضرون[29].

من قال ما لا ينبغي سمع ما لا يشتهي.

يقول الغزاليّ أبو حامد: "التعاون على طلب الحق من الدّين، ولكن له شروط وعلامات؛ منها أن يكون في طلب الحق كناشد ضالّة، لا يفرق بين أن تظهر الضالّة على يده أو على يد معاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرَّفه الخطأ وأظهره له"[30].

6- أهلية المتناظرين:

إذا كان من الحق ألا يمنع صاحب الحق عن حقه، فمن الحق ألا يعطى هذا الحق لمن لا يستحقه، كما أن من الحكمة والعقل والأدب في الرجل ألا يعترض على ما ليس له أهلاً، ولا يدخل فيما ليس هو فيه كفؤاً. من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من كان على الباطل. من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يعرف الحق. من الخطأ أن يتصدى

للدفاع عن الحق من لا يجيد الدفاع عن الحق. من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يدرك مسالك الباطل.

إذن، فليس كل أحد مؤهلاً للدخول في حوار صحي صحيح يؤتي ثماراً يانعة ونتائج طيبة. والذي يجمع لك كل ذلك: (العلم)؛ فلا بد من التأهيل العلمي للمُناظر والمحاور ليعصمه عن الزلل والخطأ، ويقصد بذلك التأهيل العلمي المختص.

7-احترام النتائج المتوصل إليها وقبولها، وعدم إسفافها، بل تحمل على أحسن المحامل ما وجد إلى ذلك سبيلا، فذلك أدعى للقبول بالآخر وأجدى في ليِّه إلى الحوار مرة أخرى في قضية أخرى، وبذلك يتجدد العلم، وتزدهر الحياة.

تلك أهم أصول المناظرة وقواعدها، وقد يزيد البعض عليها أو يقصر، والمراد كل ما يجمع المتناظرين ويؤدي بهما إلى النتائج المرضية والمعقولة بعيدا عن الهوى والتشهي فهو من أصول المناظرة وأسسها، وكل ما يسد الطريق أمام الحقيقة ويصد عن الوصول إلى الصواب فليس من المناظرة والحوار في شيء، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

آداب المناظرة:

بعد التعرف على القواعد والأسس للمناظرة، لا بد من التعرف كذلك على الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المتناظران أو المتناظرون، ليتسمر الحوار في جو من الاحترام المتبادل ويتم الإصغاء لرنين الصواب، بدلا من ضجيج الصَّخَّاب.

ولقد كتب المتقدمون والتأخرون كثيرا عن آداب المناظرة وآداب الحوار وآداب الخلاف وكلها في المعنى متقاربة، ومنهم من يدخل القواعد المذكورة في الآداب، ومن جملة ما ذكروه في ذلك:

1- التزام القول الحسن، وتجنب منهج التحدي والإفحام:

إن من أهم ما يجب على المناظر التزام الحُسنى في القول والمجادلة، ففي محكم التنزيل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [31] ، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[32]، وقوله سبحانه: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ [33] .

فحُقَّ العاقل اللبيب طالب الحق، أن ينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح والهزء والسخرية، وألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز.

ومن لطائف التوجيهات الإلهية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الباب، الانصراف عن التعنيف في الردّ على أهل الباطل، حيث قال الله لنبيه: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[34].

وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ، قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون ﴾ [35] .

ففي هذه الآية الكريمة أدبان عظيمان، يقول بهما من يثق من نفسه وصوابه:

الأول في إبهامه سبحانه من كان على الضلال ومن كان على الهدى من الفريقين مع أن بطلان ما عليه المشركون ظاهر، وحجتهم داحضة. وذلك ليصغوا إلى الحق والصواب، الذي يدغدغ فيهم الفطرة المطمورة في الران الذي على قلوبهم. لو قال لهم أنتم على الباطل ونحن على الحق، لأجابوا في الحين: بل أنتم على الباطل، ويستمر الجدال العقيم.

أما الأدب الثاني: فهو في نسبة الإجرام إلى المؤمنين، وهم منه براء، وتجنب ذلك المجرمين حقيقة، وفي ذلك من الأدب الراقي الذي لا ينم عن ضعف في صاحبه ما فيه، كما يحمل الخصم على الموازنة والمقارنة واستخدام العقل في الوصول للنتيجة. وإلا سفه عقله، وترك لغيه وجهله

ومما لا يليق بالمناظر أن يَفْتَرِضَ في صاحبه الذكاء المفرط، فيكلمه بعبارات مختزلة، وإشارات بعيدة، ومن ثم فلا يفهم. كما لا يفترض فيه الغباء والسذاجة، أو الجهل المطبق؛ فيبالغ في شرح مالا يحتاج إلى شرح وتبسيط مالا يحتاج إلى بسط.

2-الالتزام بتوزيع الوقت بينهما توزيعا يمكن كل طرف بالإدلاء بحججه.

فالمبطل والمنهزم يحاولان دائما الاستباق إلى الكلام والاستحواذ على جل الوقت لتغطية عجزه واندحاره، فيريد أن يكون أول من يتكلم وآخر من يتكلم لهذا الغرض.

وقد قال السحرة لموسى: ﴿ إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين، قال: ألقوا.. ﴾ الآية[36].

فالعجلة في كلامهم واضحة، وعدم تقدير الغير بارز في العجب بالنفس" نحن الملقين" وإطالة الكلام وحصره في ذلك، واليقين بالانتصار، لأن الجائزة الكبرى تنتظرهم: ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ [37].

أما الطرف الآخر موسى عليه السلام، فكان هادئا ورزينا ورابط الجأش، والدنيا كلها محشورة ضده، ومع ذلك لم يزد على كلمة واحدة: ﴿ أَلْقُوا ﴾ [38].

3- حسن الاستماع وأدب الإنصات وتجنب المقاطعة:

كما يطلب الالتزام بوقت محدد في الكلام، وتجنب الاطالة قدر الإمكان، يطلب كذلك حُسن الاستماع، واللباقة في الإصغاء، وعدم قطع حديث المُحاور. وإنّ من الخطأ أن تحصر همَّك في التفكير فيما ستقوله، ولا تُلقي بالاً لُمحدثك ومُحاورك.

وقد قال الحسن بن علي لابنه، رضي الله عنهم أجمعين: « يا بنيّ إذا جالست العلماء؛ فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّم حُسْنَ الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ولا تقطع على أحد حديثاً ـ وإن طال ـ حتى يُمسك».

ويقول ابن المقفع: « تَعلَّمْ حُسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام؛ ومن حسن الاستماع: إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه. وقلة التلفت إلى الجواب. والإقبال بالوجه. والنظر إلى المتكلم. والوعي لما يقول».

إن السماع الجيِّد يتيح القاعدة الأساسية لالتقاء الآراء، وتحديد نقاط الخلاف وأسبابه. حسن الاستماع يقود إلى فتح القلوب، واحترام الرجال وراحة النفوس، تسلم فيه الأعصاب من التوتر والتشنج، كما يُشْعِرُ بجدّية المُحاور، وتقدير المُخالف، وأهمية الحوار. ومن ثم يتوجه الجميع إلى تحصيل الفائدة والوصول إلى النتيجة.

4-عدم تضييع الوقت من الالتفاف حول الموضوع والدخول والخروج فيه بحثا عن القشة التي يمكن أن تنقذ المناظر.

فمن أدب المناظرة أن لا يتيه العقل ويشرد في البحث عن كل ما يمكن الإدلاء به، لأن ذلك يوقع في الأخطاء ويبتعد عن المناظر الذي بين يديك، وكأنه يخاطب صنما لا عقل له. وإذا عاد إليه الكلام، لا يدري ما الذي قاله صاحبه، وإنما يلوك ما زوره في نفسه حين كلام الخصم. وهذا تضييع للوقت وملئه بالهذر الساقط.

بل اللائق أن ينطلق من حيث انتهى الخصم عائدا على الحجج التي أدلى بها بالنقد والنقض.

5-ومسك ختام هذه الآداب الإخلاص:

ويكفي فيه كلمة الشافعي السابقة: « ما ناظرت أحدا إلا وتمنيت أن يجري الله الحق على لسانه».

فما دام الغرض هو الوصول للحقيقة فلا ضير أن توصل بإدراك زيد أو عمرو، إذ الله سبحانه وتعالى هو القاسم للمدارك والعقول، وجعل تفاوتها سببا في التنافس لاستجلاء الحقائق

من المنقول والمعقول، لتستجد الحياة وتعمر الأرض إلى يوم القفول، وهو حسبنا ونعم المعتمد والمأمول.

وفي العدد القادم بحول الله نتناول المناظرة عند الفقهاء المالكية، وما قيل عنهم فيها، مع الاستدلال بنماذج تدل على رسوخ قدمهم فيها، وإن لم تبلغ درجة الحنفية والشافعية في ذلك، من حيث الشهرة والكثرة، لا من حيث الإحكام والجودة. والله المستعان. يتبع!!!!

---

[1] – اللسان لابن منظور، 217/5.

[2] – الغريب لابن سلام، 475/4.

[3] – اللسان، 327/14.

[4] – التعريفات للجرجاني، 298/1. دار الكتاب العربي. بيروت 1405هـ ط1. تح: د. إبراهيم الأبياري. والتعاريف للمناوي محمد بن عبد الرؤوف، 678/1. دار الفكر المعاصر، دار الفكر. بيروت–دمشق. 1410هـ تح. د.محمد رضوان.

[5] – مقال له على الأنترنت.

[6] – كشف الظنون، لحاجي خليفة، 38/1. دار الكتب العلمية بيروت. 1413–1992.

[7] – الروم 22.

[8] – هود 119.

[9] – مقدمة ابن خلدون، فصل في التعليم للعلم من جملة الصنائع، 431. مؤسسة الأعلمي. بيروت بدون تاريخ.

[10] – مقدمة ابن خلدون، الفصل التسع في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات، 456.

[11] – المصدر نفسه، 458.

[12] – سنن أبي داود، 109/4. دار الفكر. تح. محي الدين عبد الحميد. والمستدرك، للحاكم. 567/4–568. دار الكتب العلمية بيروت. ط1. 1411هـ/1990. تح. مصطفى عبد القادر عطا.

[13] – سورة غافر، 29.

[14] – الكهف 22.

[15] – سنن أبي داود، 253/4. ومعاجم الطبراني الثلاثة: الصغير، 74/2، والأوسط 269/1، والكبير، 98/8.

[16] – المدخل إلى السنن الكبرى، 172/1. للبيهقي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي. الكويت، 1404هـ تح: ضياء الدين الأعظمي.

[17] – شرح نهج البلاغة، لابن ابى الحديد ج 18،ص 71،شماره نامه 77.

[18] – فيض القدير، 210/1. عبد الرؤوف المناوي. المكتبة التجارية، مصر سنة: 1356،ط 1. نقلا عن الذهبي.

[19] – سورة الطور، 33–35.

[20] – صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الطور، 193/3. دار الفكر بدون تاريخ.

[21] – الإحكام للآمدي، 195/4، دار الكتاب العربي بيروت. 1404هـ تح د. سيد الجميلي.

[22]- آل عمران، 64،

[23]- العنكبوت 46.

[24]- سبا 46.

[25]- الأنعام، 148-149.

[26]- آل عمران، 93.

[27]- الأنبياء.24.

[28]- العنكبوت، 46.

[29]- البداية والنهاية، 27/12.

[30]- إحياء علوم الدين، 1/

[31]- الإسراء 53،

[32]- النحل 125.

[33]- البقرة، 83.

[34]- الحج 68-69.

[35]- سورة سبا 24.

[36]- الأعراف 115.

[37]- الأعراف 114.

[38]- نفسه 116.